

الإنسان بين الفلسفة المادية وفلسفة التجاوز

في فكر المسيحي

أ.بومعقودة حفيظة

جامعة سوق اهراس

ملخص:

تعددت الدراسات التي تناولت النسق الحضاري الغربي بالتحليل، تارة بغرض النقد وأخرى بهدف التبجيل والإعلاء من شأنه وإثبات مركزية الغرب، فقد استقطبت تلك الشعارات البراقة التي نادى بها الحداثة الكثير من الدارسين ممن اهتموا بوضع الإنسان داخل الحضارة الغربية، وسعوا إلى إثبات مركزيته للكون من خلال ما عرف بالزعة الإنسانية وفلسفتها التي انقلبت على كل ما هو ديني رباني في سبيل تمجيد الإنسان.

وقد أتيحت الفرصة للناقد المصري عبد الوهاب المسيري كي ينهل من الفكر الحدائي وينطلق منه لنقد الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية خاصة ما يتعلق منها بقضايا الإنسان، وقد كان المسيري يروم من خلال هذا النقد إمطة اللثام عن العداء الذي يكنه النموذج الغربي للإنسان والذي يختفي خلف تلك الشعارات الزائفة التي اتخذتها الهيومانية مبدأ لها، ولهذا سنحاول خلال هذا المقال أن نحدد طبيعة النظرة إلى الإنسان في النظام الغربي ومقارنتها بتمثيلها في النظام التوحيدي الإسلامي من خلال فلسفة الناقد عبد الوهاب المسيري.

Abstract:

There were different studies about the western civilisation they sometimes examine it with the purpose of making a criticism and they sometimes praise it so as to prove its important position modernity attracted many researchers who are well interested to put human being inside the

western civilization and they also tried to prove his centerduess in this universe as we call it today the human theory and its philosophy which is a gainst all what is religious just for the glorification of man

The Egyptian critic AbdElwahab Elmssiri was allowed to star from the modern thought in order to criticize the western civilization foundations and its humanitarian issues with the purpose of clearing up the western hostility to human which is hidden behind the untruthful slogans that are taken as a principle of humanity that s why we will try in our article to identify the real western view to man and compare it with the same one in the Islamic monotheistic system according to the philosophy of the critic Abd El Wahab Elmssiri

تمهيد:

شكلت الكنيسة ومن ورائها اللاهوت ولفترة طويلة في التاريخ الأوروبي المركز الوحيد للكون، منه تصدر الأحكام وإليه ترد الحقائق، حيث كان الفكر اللاهوتي يركز على الحياة الأخروية ويشل من إرادة الإنسان بوصمه بالإثم أين كان لزاما عليه أن يصرف كل همه في سبيل التطهر انتظارا ليوم الدنيوية لمحاسبته على عمله الدنيوي المدنس¹ فاستكان الإنسان إلى سلطة الإقطاع أين تمت مصادرة حريته وتفكيره. لم يطل الأمر كثيرا حتى ضاق الناس والمفكرون ذرعا برجال الدين ومواعظهم وأفكارهم التقليدية المكررة منذ مئات السنين حيث لا توجد إلا اليقينيات القطعية والتعاليم اللاهوتية مما دفعهم الى الانقلاب على كل ما هورباني، وظهر مذهب جديد عرف "بالنزعة الإنسانية" ممثل في حركات فلسفة تمجد الإنسان وتراثه، وتعلي من شأنه وقيمه، حيث انبنى هذا الفكر على أساس أن «الإنسان جوهر فكري هو عين ذاته يفكر بعقله المستقبل، يمارس سلطته على الطبيعة والأشياء بملء إرادته»²، أين اتجهت كل الاتجاهات الفكرية والثقافية إلى البحث عن حلول لمشاكل الإنسان الوجودية والمعرفية بغرض تحقيق سعادته وراحته الدنيوية.

نقل هذا الانقلاب على الكنيسة الإنسان من الهامش إلى المركز، حيث انتصرت النزعة الإنسانية للإنسان فأخذت بيده، ومنحته شرف المركز ورفعت من قيمته في الوجود وأعطته حريته الفكرية أين طفق يصنع تاريخه ويبني أمجاده مستعينا بعقله، معلنا عن وجوده وخروجه من حالة الاستيلاّب التي عاشها في ظل الإقطاع الديني، ولكن «هذه النزعة الإنسانية ورغم ادعائها لهجر الماورائي الميتافيزيقي المطلق مستيعضة عنه بالإنساني والمادي كانت هي كذلك حمالة للمطلق بما هو مطلق إنساني»³، من خلال مركزة الإنسان وتقديسه.

على هذا الأساس تغدو النزعة الإنسانية مذهبا فلسفيا أدبيا ماديا لا دينيا يسعى للتأكيد على أهمية الإنسان أمام سلطة الدين، وتغليب وجهة النظر المادية الدنيوية على الدينية وقواها الميتافيزيقية، كما يسعى إلى تحقيق سعادة الإنسان على وجه المعمورة فهل استطاعت النزعة الإنسانية تحقيق سعادة الإنسان بعيدا عن خالقه؟ وهل حافظ الإنسان على جانبه الروحي، أما أن الفلسفة المادية اختزلته في بعده المادي فحسب؟ وكيف ينظر المسيحي ومن ورائه النظم التوحيدية للإنسان؟

1- الفلسفة المادية تقديس أم تفكيك للإنسان؟

اتجه جمع كبير من المفكرين والمثقفين إلى اعتناق وتبني الفلسفة المادية التي انتقلت من الهامش إلى المركز بفضل الفلسفات الإنسانية الهيومانية والتي «همشت الإله ووضعت الإنسان في مركز الكون وجعلته المعيار الأوحّد ومقياس كل شيء، وفي نفس المركز ظهر اسبينوزا الذي قدم رؤية معرفية واضحة عن الفلسفة المادية، فقد حول العالم إلى واحدة رياضية مصمتة، الإله فيها هو الطبيعة، والإنسان في إطار هذه المنظومة لا يختلف في أساسياته عن أي شيء في الكون»⁴ فمرجعياته النهائية هي الطبيعة/ المادة وقوانينه هي قوانين الطبيعة والمادة.

انطلاقا من هنا اعتبر عبد الوهاب المسيري الفلسفة المادية «المذهب الفلسفي الذي لا يقبل سوى المادة باعتبارها الشرط الوحيد للحياة (الطبيعة والبشرية)»⁵، أي أن المادية هي الإيمان بالطبيعة/ المادة كسقف واحد للوجود الإنساني كونه ترد كل شيء في العالم إلى مبدأ مادي هو «القوة الدافعة للمادة والسارية في الأجسام والكامنة فيها»⁶.

يذهب المسيحي إلى أن الفلسفة المادية تنطلق من الإيمان بأسبقية الطبيعة/ المادة على الإنسان وترد كل جوانب الوجود الإنسان الأخرى له «فهي تمنح العقل مكانة تالية على المادة، ولذا فإن العقل ليس له فعالية ووجوده ليس ضروريا لاستمرار حركة المادة في العالم... والمعرفة هي انعكاس للواقع الخارجي في دماغنا عبر إحساساتنا⁷»، فالمادة سابقة للعقل والأخلاق وكذلك للتاريخ، وعليه فإن الشيء الوحيد الذي يجدر بالإنسان أن يسعى إليه –حسب الماديين- هو «الخيرات المادية التي توجد بها الحياة⁸». وبهذا تكون الفلسفة المادية قد ألغت ثنائية (الإنسان والطبيعة) واختزلت الإنسان في جانب واحد هو الجانب المادي، بالرغم من أن الظاهرة الإنسانية تجمع بين ما هو مادي والمتمثل في حاجات الإنسان الطبيعية البيولوجية كالأكل والشرب والنوم... وبين ما هو روحي كالدين والفن والأخلاق والمشاعر... وإلغاء هذا الجانب الأخير من الإنسان أدى إلى ظهور ما سماه المسيحي بالإنسان الطبيعي.

إن الإنسان الطبيعي –حسب ما يذهب المسيحي- هو «ذلك الإنسان الذي لا توجد مسافة تفصله عن الطبيعة، فهو جزء عضوي لا يتجزأ منها، لا يمكنه تجاوزها، فضاءه فضاءها، وسقفها هو سقفه، وهذا يعني أنه يخضع تماما لقوانينها تحركه أينما شاءت، لا يمكنه الفكك من حتمياتها ويمكن تفسيره في إطار مقولات طبيعية مادية مستمدة من عالم الطبيعة المادة⁹»، وكأن الإنسان بذلك قد تخلص من سيطرة الكنيسة ليقع تحت سيطرة الطبيعة وتفسيراتها المادية التي تساوي الإنسان بغيره من الكائنات الأخرى.

وقد اتجهت العلوم الإنسانية في الغرب إلى تكريس مفهوم الإنسان الطبيعي/ المادي من خلال اعتباره مجموعة من الوظائف البيولوجية والحقائق المادية ومجرد نظام طبيعي كغيره من النظام الأخرى أين حاول بعض علماء الدراسات الإنسانية تبني المناهج السائدة في العلوم والرياضيات، وحاولوا تفسير الظواهر الاجتماعية والإنسانية تماما مثلما تفسر الظواهر الطبيعية بطريقة كمية، فقد تبنا نماذج رصد موضوعية عقلانية، تسقط الأبعاد الجوانية والخاصة والكيفية للظاهرة الإنسانية، وتهمل الدوافع والوعي والقيمة تماما، ثم ترد الظاهرة في كل تفاصيلها إلى قانون أو مبدأ عام واحد،

وتزال كل المسافات والثغرات والثنائيات والخصوصيات حتى نصل إلى ما يتصور أنه التفسير الموضوعي الكامل أو شبه الكامل للظاهرة¹⁰

وعليه فإن الفلسفة المادية لا تنكر الجانب الجواني أو الروحي للإنسان، بقدر ما ترجعه كلياً إلى أبعاد وحسابات كمية وعلمية بحتة، فبعد قياس الظاهرة الطبيعية في الكون وإخضاعها للتجربة، نعلم إلى تطبيق نتائجها على الإنسان اعتماداً على سلوكه الظاهري فحسب ولهذا يتجه المسيحي إلى التأكيد على أن «المحاولة لوصف عالم الإنسان من خلال سلوكه البراني محكوم عليها بالفشل، ومحكوم عليها بأن تظل سطحية تافهة. فهي بإصرارها على ضرورة البراني الموضوعي تستبعد قضايا إنسانية أساسية مثل انشغال الإنسان بمصيره وتجربته في الكون»¹¹.

ولعل هذا الاختزال في تفسير الظاهرة الإنسانية هو سر جاذبية الفلسفة المادية كون «التفسير المادي للظواهر سهل، حيث يمكننا الحصول بشكل سريع على المعلومات عن العالم المادي وقياسها والترابط المادي بين الظواهر أمر يمكن رصده بشكل موضوعي محسوس فحركة المادة نتیجتها مباشرة»¹² هذا عكس الجانب غير المادي في الظاهرة الإنسانية والذي يستعصي فهمه وتفسيره نظراً لتعقيده وتركيبته، وتعدد أبعاده.

ثم إن الفلسفة المادية «تحويل الإنسان إلى جزء من كل أكبر فلا يوجد له هوية أو حدود أو إرادة مستقلة عن هذا الكل المادي الذي ترد إليه، وهذا يعني إنكار الهوية الفردية المستقلة والمسؤولية الخلقية والاختيار الحر»¹³ فالفلسفة المادية هنا تحقق للإنسان رغبته في بلوغ عالم لا يحمل أي تعقيدات ولا عقاب ولا يحوي صراعاً ولا تدافعاً، عالم تنتفي فيه المسؤولية والأعباء الأخلاقية، عالم بسيط مريح يشبه عالمه الأول الذي خلق فيه (رحم أمه) وهذه الرغبة موجودة في كل نفس بشرية أطلق عليها عبد الوهاب المسيري اسم النزعة الجينية أو الرحمية.

ويذهب المسيري إلى أن الفلسفة المادية قد استطاعت النفاذ إلى الجذور المادية الكامنة في النفس البشرية ممثلة في النزعة الجينية وإيقاضها ومخاطبة نوازع الإنسان المادية وهو يرى «أن أحد أهم أسباب نجاحه (النموذج المادي) على المستوى العالمي هو أن جذوره كامنة في النفس البشرية ذاتها فيما سميناها النزعة الجينية، ورغبة الذوبان في الكل حتى يهرب المرء من عبء المسؤولية الخلقية والإنسانية»¹⁴ فالنزعة الجينية

ترفض الحدود الفاصلة بين الإنسان وعالمه وتلغي المسافة بينهما حتى يتم اختزال الإنسان في عناصر تتطابق مع العالم الخارجي.

إذن تخاطب الفلسفة المادية أضعف نقطة في النفس البشرية لأنه متى ما تعلق الأمر بالدعوة إلى انتفاء المسؤولية والأعباء الأخلاقية فإن الإنسان يكون سريع الاستجابة ويستسلم لنوازع المادية الغريزية والطبيعية بغرض تحقيق اللذة والمنفعة، فاتباع هوى النفس وما تمليه النزعة الجينية سيكون أسهل بكثير من ممانعته، وعلى رأي المسييري فإن «السقوط في الوحل أسهل بكثير من الصعود إلى النجوم»¹⁵ وعلى هذا الأساس تبنت الشعوب هذه الفلسفة على أمل تحقيق سعادة الإنسان، دون أن تدرك أن هذه الفلسفة تنحو بالإنسان نحو العدم خاصة بعدما بدأت بداياتها تتجلى على أرض الواقع. تستند الفلسفة المادية حسب المسييري إلى المرجعية الكامنة، ويقصد المسييري بالمرجعية "الفكرة الجوهرية التي تشكل أساس كل الأفكار في نموذج معين، والركيزة النهائية الثابتة له التي لا يمكن أن تقوم رؤية العالم دونها، والمبدأ الواحد الذي ترد إليه كل الأشياء وتنسب إليه"¹⁶ والفكرة التي تنطلق منها الفلسفة المادية هي النظر إلى العالم باعتباره أنه يحوي داخله ما يكفي إلى تفسيره دون اللجوء إلى شيء خارج النظام الطبيعي، فمرجعية الفلسفة المادية هي مرجعية مادية كامنة في الطبيعة لا تتعدها ولا تتجاوزها لشيء خارجها.

وفي إطار المرجعية المادية يصبح الإنسان "كائن طبيعي وليس مقولة مستقلة، داخل النظام الطبيعي، وإنما هو مستوعب تماما في قبضة الصيرورة فتسقط المرجعية الإنسانية وتصبح المادية هي المرجعية الوحيدة النهائية"¹⁷ وعليه يتوحد الإنسان بالطبيعة في عالم لا ثغرات فيه ولا مسافات ولا ثنائيات ويختزل العالم بأسره في مبدأ واحد كامن في المادة.

قد تكون الفلسفة الدارونية هي من أكثر الفلسفات ترجمة للمادة ومن بعدها العلمانية والإمبريالية فقد "رسخت الفلسفة الدارونية أفكار الواحدية المادية الكونية التي تذهب إلى أن العالم أن هو إلا مادة واحدة صدر عنها كل شيء"¹⁸. كما أثبتت أن "الإنسان ما هو إلا جزء من هذه الطبيعة، وهذه المادة وقد صدر هو أيضا عنها من خلال عملية التطور"¹⁹ فالدارونية تنكر بذلك قيمة أي شيء خارج نطاق المادة فمهما

وإلّا يعود العالم بأسره، وتؤكد على أن ما يحدد القيمة هو القدرة على الصراع والبقاء وسيكون البقاء للأقوى.

وقد تولدت عن هذه الرؤية الدارونية للعالم ونظام البقاء للأقوى ما يسميه المسيحي بالرؤية العلمانية الإمبريالية، ويرى أن العلمانية شأنها شأن الدارونية فهي رؤية عقلانية مادية تدور في إطار المرجعية الكامنة والواحدة المادية التي ترى بأن مركزا الكون كامن فيه غير مفارق أو متجاوز له، وأن العالم بأسره متكون أساسا من مادة واحدة لا قداسة لها ولا تحوي أسراراً²⁰. وعليه فالعلمانية تلغي تماما الحيز الإنساني ولا تعترف إلا بالحيز الطبيعي المادي، أين تصبح الإنسان جزءا لا يتجزأ من الطبيعة، ويغدو كائنا أحادي البعد، لا يتحرك في الحيز الإنساني وإنما في الحيز الطبيعي، وذلك لأن مرجعيته هي مرجعية مادية كامنة فلا فرق بينه وبين غيره من الكائنات.

وتظهر الإمبريالية كنتيجة للعلمانية التي حوسلت كل من الإنسان والطبيعة، ويصف المسيحي العلاقة بين العلمانية والإمبريالية باعتبار أن «العلمانية الشاملة هي النظرية والإمبريالية هي التطبيق فهما وجهان لعملة واحدة، وقد أخذت العلمانية الشاملة في الداخل الغربي شكل الترشيد في الأطوار المادي فتم تنميط الإنسان الغربي وتدجينه، وأصبح من السهل تحويله إلى مادة استعمالية أي إلى طاقة انتاجية وقاتلية»²¹. وهي الإمبريالية العسكرية التي اكتسحت العالم، فضلا عن الإمبريالية النفسية التي مارست سلطتها على الإنسان، وبالرغم من اختلاف آليات ومجالات التطبيق بين العلمانية والإمبريالية إلا أن هدفهما واحد وهو فرض الواحدية المادية على العالم.

من خلال ما سبق تبدو الفلسفة المادية بجميع تجلياتها معادية للإنسان، كونها عزلته عن كليته وعن مضمونه الاجتماعي وجانبه الروحي، وجعلت منه كائنا مفككا يفتقر إلى اليقين، نسبي الأخلاق، مفرغ من مضامينه الجوهرية، مجرد من مقومات أمنه النفسي والحياتي، يحوي داخله مضامين تتنافى وكيهونه، مرتديا هوية زائفة خالية من المعنى

وهو في كل هذا يجابه عالما لا قسمات له «كل ما فيه محايد، بارد، ميت خاضع لقوانين برانية ليست لها أبعاد جوانبه، مادة محضه خارجة عنه وعن وعيه وعن

إحساسه بذاته الإنسانية، فهذا العالم عالم غير إنساني يسيطر عليه التسلع والتوشن والتشيع، وهذا ما يؤدي إلى الاغتراب»²². فالإنسان قد صفي تماما من إنسانيته، وقضت عليه أوهامه وأحلامه فقد سقط في منظومة المادة واخترقته مجموعة من الأحلام والأوهام والرغبات لا يدرك تضميناتها الاجتماعية والأخلاقية رغم أنها توجهه وتحدد أولوياته دون وعي منه، كما تم تشييء الإنسان ونزع القداسة عنه وتحويله إلى مادة استعمالية مرنة لا تملك من الإنسانية إلا الاسم²³.

بهذه النتيجة تكون الفلسفة المادية قد فشلت فعلا في تفسير الظاهرة الإنسانية وتكون قد فككت الإنسان بعد أن ادعت السعي إلى تقديسه وجعله مركز الكون، ولكنها أخطأت الهدف وانحرفت عن المسار عندما عجزت عن إيجاد أجوبة لأسئلة المعنى والوجود اعتمادا على رؤيتها غير القادرة على تجاوز المرجعية الكامنة.

وهو ما أدى في رأي المسيري الى ظهور فلسفات عدمية لا تؤمن حتى بالإنسان وهذه العدمية هي إعلان عن عدم قدرة المادية طمس معالم الهوية الإنسانية وهي » تعبير عن شوق الإنسان لأن يجد معنى في عالم بلا معنى وأن يجد القداسة في عالم نزعت عنه القداسة وأن يجد الله في عالم آلي مادي، ولكنه شوق لم يصل إلى غاية، وبحث باء بالفشل، والغضب هو غضب من يشعر في أعماقه بالإله الخفي»²⁴

2- الرؤية الإنسانية المتجاوزة:

يحدد المسيري منذ البداية منطلقات فكره وفلسفته بالتميز أولا بين الإنسان والمادة فهو يرى أن الإنسان يتميز بصفات تجعله يترفع عن سائر الكائنات الأخرى ولا يتساوى معها، وهو أكثر تركيبا من المادة وأكثر تعقيدا منها وعناصره مترابطة متلاحمة تتمظهر في عدة مظاهر تعبر عن الكيان الإنساني، فهو إنسان عاقل، واع بذاته وبالكون يمارس نشاطا دينيا وخلقيا، حر في اختياراته، مسؤول عن أفعاله، دائم التساؤل عن العلل ... وهذه الممارسات هي التي تجعل الإنسان مختلفا كيفيا وجوهريا عن المادة²⁵.

ومن خلال هذه الفروق التي رصدها المسيري، يتجه إلى رفض المقولات الغربية التي تؤكد على أن الطبيعة البشرية تتحرك حسب صيرورة المادة وتتأثر بها «فإذا كانت

الطبيعة البشرية تتسم بشيء من الثبات والتماسك وفي نهاية الأمر التسامي على الواقع المتغير وتجاوزه، فإن هذا الثبات شاهد على وجود كيان منفصل عن المادة ليس خاضعا لقوانينها الصارمة الآتية ولذلك فإن أي إنسانية مادية (أي الإيمان بالإنسان مع إنكار الما وراء) كما هو الحال مع الإنسانية الماركسية أو الليبرالية في الغرب لا يمكن أن يتسق مع نفسه، ولا بد أن يتحول إلى الإيمان بالله أو إلى عدمية كاملة»²⁶.

وهذا يعني أن المسيحي قد ربط بين الإيمان بوجود الله وبين إنسانية الإنسان وكأنه «لا يمكن تفسير ظاهرة الإنسان المستقل عن الطبيعة إلا بوجود الخالق»²⁷. فقد انطلق المسيحي من ثنائية الإنسان والطبيعة ليصل من خلالها إلى الله ومقصده من ذلك هو تأكيد إنسانية الإنسان من خلال وجود الله المنزه الذي ليس كمثله شيء وذلك على اعتبار أنه «لا يحفظ إنسانية الإنسان سوى الله سبحانه وتعالى ووجوده هو ضمان إنسانية الإنسان، فالإيمان بالله متجاوز، مفارق للمادة يعني أنه يوجد داخل الإنسان ما يميزه عن الكائنات الطبيعية المادية الأخرى»²⁸.

ثم إن تلك النزعات الإنسانية (الماركسية) في رأي المسيحي تناقض نفسها وهذا كونها نزعات الحادية تنكرو وجود الله وانكارها لوجود الله يعني إنكارها لوجود الإنسان وبالتالي فإن إدعاءها للإنسانية هو ادعاء مزعوم يفسره ما فعلته بالإنسان عندما جعلته مادة.

وهو نفس الأمر الذي طرحه «بيوجفيتش» عندما صرح بأن "القول بمذهب إنساني ملحد هو ضرب من التناقض لأنه اذا ما انتفى وجود الله انتفى بالتالي وجود الإنسان، كما أنه ما لم يوجد انسان فإن الإنسانية التي يزعمونها تصبح عبارة بلا مضمون لأن الذي لا يعترف بخلق الإنسان لا يمكنه أن يفهم المعنى الحقيقي للإنسانية»²⁹.

وهو ما يؤكد على أن كل النزعات الإنسانية والتي اهتمت بالإنسان منعزلا عن خالقه لم تفهم الإنسان بحق لأن اصحابها لم يتغلغلوا إلى الذات الإنسانية لمعرفة أبعادها المختلفة واكتفوا بالجانب المادي الخارجي فقط للإنسان، ثم أنه لا يمكننا فهم الجانب الروحي للإنسان إلا من خلال الإيمان بوجود قوة غيبية أودعت فيه هذا السر

الذي جعلت منه إنسانا سويا يفكر ويعقل ويتحمل المسؤولية، وانتفاء الايمان بوجود الله ينفي أيضا الإيمان بإنسانية الإنسان.

من الخطأ الاعتقاد بأن المسيحي ينكر تماما وجود الجانب المادي في الإنسان، فهو يرى أن الإنسان يتمتع بثنائية أساسية تتمثل في الجانب الطبيعي (المادي في مقابل الجانب غير المادي أو الروحي أو الثقافي أو المعنوي)، فكما أن له احتياجات طبيعية مادية، مثل حاجته للطعام والهواء والنوم والتناسل، وتلبية كل ما يتعلق بتركيبه العضوي، له كذلك احتياجات متجاوزة للطبيعة يعبر عنها بمظاهر عديدة من خلال حسه الديني والجمالي وحسه الاجتماعي والخلقي يمكن أن تفسر ماديًا³⁰

ولهذا فإن الطبيعة البشرية تتميز بازدواجية الطبيعي المادي والروحي الانساني مما يعني أن الإنسان تتنازع داخله نزعتان أطلق عليها المسيحي اسم النزعة الجينية والنزعة الربانية فإذا كانت النزعة الجينية تمثل الجانب المادي في الإنسان والتي يرفض من خلالها الحدود الفاصلة بينه وبين الواقع فإن النزعة الربانية هي "سعي الإنسان نحو التميز ووضع المسافات بين الذات ومحيطها وبين الخالق والمخلوق والرغبة في تأكيد الوعي والهوية الإنسانية أين يصبح الإنسان كائنًا حرا مسؤولًا"³¹.

وتتجلى النزعة الجينية في ما يسميه المسيحي بالإنسان الطبيعي³². الذي يعيش داخل حدود الطبيعة يخضع لقوانينها وحتمياتها، يظهر من خلال حدود وظائفه البيولوجية وفيها يتم تعريفه، وهذا هو الإنسان الغربي المادي المتشئ والذي يضع المسيحي في مقابلة ما سماه بالإنسان الإنسان الذي هو «إنسان غير طبيعي مادي يحوي داخله عناصر ربانية متجاوزة لقوانين الحركة»³³

فالإنسان الإنسان هو إنسان ذو نزعة ربانية أو بالأصح تغلب عليه النزعة الربانية، يحوي داخله القبس الإلهي «ذلك النور الذي يبثه الإله الواحد المتجاوز في صدور الناس فيمنحه تركيبته اللامتناهية، ويولد في الإنسان العقل الذي يدرك من خلاله أنه ليس بإله وليس بالكل وأنه مكلف بحمل الأمانة، وأن عليه أعباء أخلاقية وإنسانية تشكل حدودا وإطارا له»³⁴

وعلى هذا الأساس يغدو الإنسان الرباني القطب الرئيسي الثاني بعد القطب الأول، وهو الله أين نال مكانة الشرف عندما استخلفه الله في الأرض وجعله يحمل

الأمانة من خلال قوله تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»³⁵. وقوله أيضا «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملها وأشفقنا منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا»³⁶. فتشريف الله للإنسان منحه القدرة على تجاوز الجانب المادي الطبيعي داخله (الزعة الجينية) وينتصر لتركيبته وتعدد أبعاده.

ومع هذا يبقى الإنسان الحقيقي هو الذي يعيش ازدواجية المادي والروحي «فالازدواجية هي ألصقت المشاعر بالإنسان ... فقد يكتشف الإنسان خلال خبراته ازدواجية العالم ولكن الواحدة كامنة في صميم كل فرد إنساني وذلك لأن الحياة هي أسى من الفكر وحيث أننا نحيا واقعين وقد نستطيع أن نفكر بين العالمين، ولكننا لا نستطيع الحياة من دونهما»³⁷.

إن الصراع القائم بين الزعة الجينية والزعة الربانية هو الذي يثبت وجود الإنسان وقدرته على التفاعل والتأثير والتأثر، فلا يمكن بكل حال من الأحوال إلغاء جانب من هذين الجانبين لا الطبيعي المادي ولا الروحي الرباني، فالإنسان كما يراه المسيحي «كائن يعيش داخل جسده المادي في الطبيعة المادية يتحرك جزء منه حسب قوانين الجاذبية والدوافع البيولوجية والغريزية، ولكن في الوقت ذاته تتوق روحه إلى عالم المثل والثبات والروح، فهو كائن أقدامه مغروسة في الوحل وعيونه شاخصة إلى النجوم، يسقط دائما ولكنه قادر على النهوض والتجاوز»³⁸.

إذن الخيط الناظم لفكر وفلسفة المسيحي هو فكرة التجاوز والتي يقصد بها أن يرتقي الإنسان ويتعالى على حدوده المادية والطبيعية برغم بقائه داخلها «فالإله يتجاوز كل حدود المكان والزمان فهو منزه عنها وعن عالم الطبيعة المادية وعن الإنسان، والإيمان بوجود متعال يتجاوز كل من الطبيعة والإنسان هو سمة المنظومات التوحيدية»³⁹. وهو ما يعني وجود مرجعيتين مختلفتين الأولى هي المرجعية المتجاوزة وهي في النظم التوحيدية الله أي أننا نحتاج في تفسير الظاهرة الإنسانية إلى عنصر متجاوز وخارج عن نطاق الإنسان والطبيعة وهو الله عكس المرجعية الكامنة التي تحوي داخلها ما يكفي لتفسيرها.

ويقودنا هذا إلى الحديث عن ما أسماه المسيحي بـ "الثنائيات الفضفاضة" وهي تشكل أيضا الأسس التي انطلقت منها فلسفة المسيحي في تفسير الظواهر، يربط بين أطراف الثنائية قدرة الأولى منها على التجاوز والانفصال عن الأخرى، ولكنه ليس انفصال بالمعنى القطعي وإنما هو انفصال واتصال في نفس الوقت وهو ما يفرض وجود مسافة بين الطرفين حيث يؤكد المسيحي على ذلك من خلال قوله «في الثنائيات الفضفاضة ثمة عنصران قد يكونان متكافئين أو غير متكافئين ولكنهما مع هذا يتفاعلا ويتدافعا، أما في الإثنية فإن هناك عنصرين مختلفين تمام الاختلاف ولذا فهما يدخلان في صراع أزلي»⁴⁰.

الثنائية الكبرى والأساسية في رأي المسيحي – هي ثنائية (الخالق والمخلوق) والتي ستنبثق عنها جميع الثنائيات الأخرى ك: (الإنسان والطبيعة)، (الخير والشر)، (العدل والظلم)...

تتضح من خلال ثنائية الخالق والمخلوق معالم التوحيد «فالله هو مرجعية هذا العالم وركيزته الأساسية ومطلقه الذي لا يرد إلى شيء خارجه»⁴¹. الأمر الذي يضمن المسافة بين الخالق والمخلوق فلا يرد أحدهما إلى الآخر، ولا يردان إلى ما دونهما (الطبيعة) ووجود هذه المسافة هو ما يؤكد على التجاوز ويؤكد أيضا على حالة التفاعل من خلا الاتصال والانفصال، فالخالق منفصل عن مخلوقه لكونه «المنزه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ»⁴². وهو المتعالي عن الزمان والمكان والمكتفي بذاته، وهذا التنزيه وذاك التعالي هو الذي جعل الإله متجاوزا وفرض مسافة بين الخالق ومخلوقه وجعل أي خرق لهذه المسافة هو انتهاك لقدسية الله.

إن فلسفة التعالي والتجاوز الحققة – حسب المسيحي – هي «التي تصل دائما إلى أن وجود الإله يسبق كل الموجودات، ومن ثم فهو سببها النهائي، ولكنه منزه عنها، وله وجود مستقل، وهو مركزها وهو الغاية التي تسعى نحوها، فالله تعالى هو المتعالي والعالي والعلي وهو «الغيب، والشهادة الكبير المتعال»⁴³. «البائن على خلقه»⁴⁴. أي أنه مركز الكون والمدلول النهائي المتجاوز للطبيعة والتاريخ المنزه عنها.

وكون الله منزها عن مخلوقاته لا يعني أبدا أنه منفصل عنها بإطلاق بل هو متصل بها، وله تجلياته في هذا الكون فهو «مصدر تماسك العالم ووحدته وحركته وغايته، الإله خالق

الإنسان والطبيعة والتاريخ، وهو الذي يمنحهم المعنى ويحدد لهم الغاية النهائية»⁴⁵. فرغم تعالي الخالق إلا أنه لا يتخلى عن مخلوقاته، وإنما يتفاعل معها ويرعاها دون أن يتماها معها مما يحفظ المسافات بين الثنائيات بحيث لا تتسع فتتحول إلى الضد ولا تضيق وتلتحم فتتحول إلى الواحدة.

ثنائية (الإنسان والطبيعة) لا يمكن أن نفهم هذه الثنائية بمعزل عن الثنائية الأولى (الخالق والمخلوق) وهذه الثنائية تفترض وجود مسافة بين الإنسان والطبيعة وهي من عطاء الله كونه هو من منح للطبيعة معناها وللإنسان معناه، ورغم أن الإنسان يعيش داخل الطبيعة بجسده إلا أنه منفصل عنها بعقله وروحه، مما يعني وجود حدود بين الطبيعة والإنسان كونه «جزء يتجزأ من الطبيعة»⁴⁶. وليس جزءا لا يتجزأ منها كما ترى الفلسفات المادية الغربية.

تفرض ثنائية الإنسان والطبيعة انفصال الإنسان عن الطبيعة وأسبقيته عليها واستحالة رده إليها وتفسيره في إطارها كونه «ظاهرة متعددة الأبعاد ومركبة غاية التركيب ولا يمكن اختزاله في بعد من أبعاده أو في وظائفه البيولوجية أو حتى في كل هذه الوظائف»⁴⁷. وعلى هذا الأساس فإن تجاوز الإنسان للطبيعة -حسب المسيحي- يتم من خلال فعلين: «الأول هو قدرة الإنسان على تجاوز الجوانب الطبيعية في ذاته»⁴⁸. كونه يحوي داخله جوانب طبيعية مادية وجوانب روحية، والثاني «قدرته على تجاوز الطبيعة المادية في حد ذاتها»⁴⁹. والقدرة على التجاوز تأتي من خلال استعمال الإنسان للعناصر الربانية التي منحها الله إياه والتي تميزه عن الطبيعة\ المادة، وتجعل بينه وبينها مسافة فاصلة.

وهذا أيضا لا يعني أن الإنسان مركز الكون ولا يعني أيضا أنه مالك الطبيعة، فهو خليفة فيها من قبل خالقها أي أنه ثمة حيز طبيعيا مستقل عن الإنسان وإن كان من حقه التحرك فيه وهو ما جعل المسيحي يعتبر أن «إنسانية الإنسان تكمن في مقدرته على التجاوز»⁵⁰ إذن يبدو أن القدرة على التجاوز ووجود المسافة مفهوم محوري في فلسفة المسيحي، إذ أن مفهوم المسافة مرتبط تمام الارتباط بفكرة الحدود والاتصال والانفصال والذوبان والاستقلال ووجود المسافة هو من سمات المنظومات التوحيدية التي تؤمن بوجود الله المفارق والمنزه المتعالي عن خلقه بينما إلغاء المسافات والذوبان الخالق في مخلوقه والإنسان في الطبيعة، ورد الكون بأسره إلى مبدأ واحد هي من سمات المنظومات الحلولية، وفي رأي المسيحي فإن المادية والحلولية تقف على طرف النقيض من التوحيد⁵¹

وعلى هذا الأساس فإن المسافة تحفظ للإنسان حدوده وهويته واستقلاله، وإلغاؤها يعني الذوبان والانصهار الكلي في الطبيعة والمادة، وهو ما حدث للإنسان الغربي الذي تم اختزاله ورده إلى الطبيعة في جميع أبعاده وجعله مجرد شيء يتم التعامل معه وكغيره من الأشياء الأخرى المادية فقد «فشل النموذج المادي في رد تلك الجوانب النبيلة في الإنسان مثل مقدرته على التضحية بنفسه من أجل وطنه، ومن أجل أبيه وأمه، ومقدرته على ضبط نفسه من أجل مثل علينا»⁵².

بات واضحا أن الفلسفة المادية أثبتت قصورها عندما فشلت في تفسير الأبعاد الأنطولوجية للإنسان، وهذه الأبعاد هي بطبيعتها عناصر متجاوزة لحدود المادة، وتفرض مسافات تضمن الانفصال وعدم التماهي والاتصال مع التفاعل، حيث يبقى الإنسان كائنا قادرا على التجاوز برغم الظروف والحدود الطبيعية والتاريخية والسياسية، قادرا على إعادة صياغة ذاته وبيئته حسب رؤيته، وهذا لكونه كائنا ربانيا يحمل في تكوينه نفحة من روح الله أو ما يسميه المسيحي بالآله الخفي «والإنسان مهما بلغ من مادية فإنه لا يقبل المادة المتغيرة إطارا مرجعيا وإنما يبحث عن مركز للعالم وعن إطار وعن أرض ثابتة يقف عليها وعن كليات تتجاوز الأشياء»⁵³.

وانطلاقا من رؤيته المتجاوزة رصد عبد الوهاب المسيري الفرق بين النموذج الذي يعتمد على التوحيد والذي يجعل الإنسان مركزا وكيانا نادرا وقيمة مطلقة ثابتة، ترمي إلى تحقيق غايات إنسانية وتؤكد أسبقية الإنسان على الطبيعة ومقدرته على التجاوز، والنموذج الذي يستند إلى الفلسفة المادية فيجعل الطبيعة المادة مركزا ولا يعترف إلا بالحركة المادية الدائمة، وبالواحدية المادية الصارمة التي تتجاوز الغائية الإنسانية، وتجعل الإنسان خاضعا للحتميات المادية وتظهر التضمينات الفلسفية لكلا النموذجين من خلال الجدول التالي⁵⁴.



الإنسان	الطبيعة / المادة
ثنائية الطبيعة وما وراءها	الواحدية المادية
الحضارة والطبيعة	الطبيعة
ثنائية الإنسان والطبيعة	توحد الإنسان بالطبيعة
أسبقية الإنسان على الطبيعة /المادة	أسبقية الطبيعة /المادة على الإنسان
إنسان مادة وروح	إنسان مادة وحسب
الإنسان يوجد في الطبيعة ومنفصل عنها	الإنسان الطبيعي جزء لا يتجزأ من الطبيعة
علاقة تفاعلية مع الطبيعة	علاقة صراع تنتهي بالسيطرة الكاملة أو الإذعان الكامل
الإنسانية المشتركة	العالم مكون من ذرات متناثرة وأفراد متناحرة فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان
العقل التوليدي (عقل مفطور فيه مقولات قبلية)	العقل المتلقي (صفحة بيضاء تراكم عليها المعطيات)
المقدرة على التجاوز	التشيؤ والمقدرة على التكيف
الإحساس بالطمأنينة في الكون	الذوبان في الكون أو الإحساس الشديد بالغرابة
مركزية الإنسان (الاستخلاف في الإسلام)	ازاحة الإنسان عن المركز
تركيبية (مادية روحية)	اختزالية مادية
ذات الإنسان مستقلة تتقابل مع الكل	ذات الإنسان مستقلة تماما عن الكل أو ذاتية تماما فيه
حرية الاختيار	حتميات مادية
المسؤولية الخلقية	انعدام المسؤولية
الأخلاق التي تتجاوز المنفعة المادية	الأخلاق النفعية
الإنسان متعدد الأبعاد	الإنسان ذو البعد الواحد
الفكر والواقع	الواقع المادي
الرؤية الكلية المترابطة	التراكم المعلوماتي
أنماط متواترة	حقائق متناثرة
المنحنى الخاص للظاهرة	القانون العام
سببية فضفاضة	سببية صلبة
تعددية منهجية (مناهج العلوم الطبيعية مختلفة عن مناهج العلوم الإنسانية)	وحدة العلوم
استمرار وانقطاع	استمرار واضطراد

توحد الفلسفة المادية الإنسان بالطبيعة وترد كل جوانبه إليها، وتفترض أسبقيتها عليه وتعتبره جزء لا يتجزأ منها، وتعامله معاملة الأشياء المادية، وهو في ظل المادية إنسان ذو بعد واحد يخضع للحتميات المادية في عالم تنعدم فيه المسؤولية وتنتفي فيه الأعباء الأخلاقية.

وهذا تكون الفلسفات المادية قد عملت على تفكيك الإنسان ونظرت إليه بوصفه كائناً طبيعياً تحركه غرائزه الوحشية «فقد تحدث هوبز على أن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وشبهه اسبينوزا بالحجر، وتحدث داروين عن علاقة القرد بالإنسان، وأكد فرويد أن القرد يوجد داخل الإنسان، ورآه الماركسيون وأتباع أدم سميث إنساناً اقتصادياً وأجرى بافلوف تجاربه على الكلاب وافترض أن النتائج التي توصل إليها تنطبق على الإنسان»⁵⁵. وهذه الرؤية هي ما تمثل مكانة الإنسان في الفلسفة المادية.

أما النموذج القائم على التوحيد فإنه يعطي للإنسان مكانة متميزة حيث يفرض أسبقية على الطبيعة واستحالة رده إليها كونه جزءاً يتجزأ من الطبيعة يتمتع بالقدرة على تجاوز الجوانب المادية القابعة داخله، وهو كائن متعدد الأبعاد يتمتع بالحرية والمسؤولية رغم الحدود الطبيعية التي تحدده ويكفيه شرفاً أنه خليفة الله في الكون.

خاتمة:

من خلال ما سبق يمكننا القول أن فلسفة التجاوز عند المفكر عبد الوهاب المسيري والقائمة على المرجعية التوحيدية، قد منحت للإنسان المكانة التي يستحقها، وهي في الأصل مكانة منحه إياها الإسلام عندما جعله خليفة الله في الأرض، وهذه الخلافة تقوم على خضوع الإنسان لله وحده وعبادته له، فهي عبودية تحوي داخلها حرية لأنها بتحقيقها يصبح الإنسان سيذا وخليفة في الأرض، وهو ما قصده المسيري عندما قال بأنه وصل إلى الله من خلال الإنسان، ذلك أن كل باحث يتمتع بنوع من التجريد والموضوعية يروم دراسة ظاهرة تتعلق بالإنسان فإنه ولا شك سيصل إلى الله نظرا للعلاقة التي تربط الخالق بال مخلوق ولهذا فإن دراسته للإنسان لن تتصادم مع النص الإلهي خاصة وأن كل إنسان يحوي داخله "القبس الإلهي أو الإله الخفي" هذا في مقابل رفض الإله وسلطته والخضوع له في النموذج الغربي ليجد الإنسان نفسه خاضعا لسلطة أقل منه شأنا وهي سلطة الطبيعة (المادة)

وهذا يغدو التجاوز ووضع المسافات بين الثنائيات حافز لبناء إنسان مسلم قادر على تجاوز قصوره الذاتي والمادي من خلال الله والذي وضع داخله الدافع لتحقيق إمكاناته الإبداعية التي من شأنها أن تصنع منه إنسان فعال، سيد نفسه وسيد الكون – فالمرجعية التوحيدية هي التي صنعت الإنسان بينما افتقار الإنسان الغربي لمرجعية إلهية هي التي جعلت من الإنسان الغربي إنسانا طبيعيا سقفه المادة وجوهره المادة.



الهوامش:

- 1- ضمد كاظم وسعي: صيرورة الفكر وتفكيك الإنسان، مجلة الحوار المتمدن، العدد 2347 بتاريخ 2008/07/19 على الموقع الإلكتروني WWW.ALHIWAR.ORG.
- 2- نفسه.
- 3- عبد الوهاب المسيري: حوارات العلمانية، الحداثة، العولمة، ت سوزان حرفي، دار الفكر، دمشق، 2010، ج2، 84.
- 4- عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق، مصر، 2002، ج1، ص 48.
- 5- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط 5، 2013، ص 17.
- 6- نفسه، ص 17.
- 7- نفسه، الصفحة نفسها.
- 8- نفسه، ص 18.
- 9- نفسه، ص 28.
- 10- نفسه، ص 52.
- 11- نفسه، ص 54.
- 12- نفسه، ص 20.
- 13- نفسه، ص 21.
- 14- عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط 2، 2008، ص 127.
- 15- عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية (سيرة غير ذاتية غير موضوعية)، دار الشروق، القاهرة، ط 2، 2006، ص 389.
- 16- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 36.
- 17- نفسه، ص 38.
- 18- نفسه، ص 101.
- 19- نفسه، الصفحة نفسها.



- 20 - عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج1، ص 220.
- 21- عبد الوهاب المسيري: الإمبريالية النفسية، مقال منشور ضمن موقع عبد الوهاب المسيري الإلكتروني www.elmissiri.com فئة المقالات.
- 22- عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ج2، ص 248-249.
- 23- عبد الوهاب المسيري: الإنسان والثيء: موقع المسيري الإلكتروني www.elmessiri.com
- 24- عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ص 201.
- 25- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 12.
- 26- عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ص 197.
- 27- عبد الوهاب المسيري: رحلي الفكرية، ص 305.
- 28- هبة رؤوف عزت، عبد الوهاب المسيري: العقل الموضوعي الإسلامي في بحثه عن الإنسان، مجلة رؤية، العدد 542، أكتوبر 2010، ص 06.
- 29- علي عزت بيوجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ت. محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، مصر، 1997، ص 89.
- 30- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دار الفكر، دمشق، ط5، 2013، ص 11.
- 31- عبد الوهاب المسيري: رحلي الفكرية سيرة غير ذاتية غير موضوعية، ص 388.
- 32- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 28.
- 33- نفسه، ص 28.
- 34- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، مصر 1999، ج1، ص 81.
- 35- سورة البقرة : الآية (30)
- 36- سورة الاحزاب: الآية (72)
- 37- علي عزت بيوجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ت. محمد يوسف عدس، مؤسسة بافاريا، مصر، 1997، ص 27.
- 38- عبد الوهاب المسيري: رحلي الفكرية، ص 184.



- 39- عبد الوهاب المسيري: الإنسان والحضارة والنماذج المركبة، دار الهلال، مصر، 2002، ص 384.
- 40- عبد الوهاب المسيري: دفاع عن الإنسان، دار الشروق، مصر، ط3، 2014، ص 358.
- 41- عبد الوهاب المسيري: اللغة والمجاز، ص 22.
- 42- عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، ص 184.
- 43- سورة الرعد، الآية 9.
- 44- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ص 58.
- 45- عبد الوهاب المسيري: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ص 15.
- 46- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 14.
- 47- نفسه، ص 13.
- 48- عبد الوهاب المسيري: اليد الخفية (دراسات في الحركات اليهودية الهدامة والسرية)، دار الشروق، مصر، 1998، ص 300.
- 49- نفسه، الصفحة نفسها.
- 50- عبد الوهاب المسيري: حوارات العلمانية، الحداثة، العولمة، ج 1، ص 157.
- 51- نفسه، ص 74.
- 52- عبد الوهاب المسيري: الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ص 56.
- 53- هبة رؤف عزت: عبد الوهاب المسيري العقل الموسوعي الإسلامي في بحثه عن الإنسان، ص 7.
- 54- رائد حيل عكاشة وآخرون: الفلسفة في الفكر الإسلامي، قراءة منهجية ومعرفية المعهد العالمي للفكر الإسلامي، بيروت، 2012، ص 25-26.
- 55- نفسه، ص 24.